الجِهادُ مِحَكُّ الرِّجالِ

بِقَلَم:

أبي بكرٍ خالد بن محمد الشّامي

1437 هـ | 2016 م



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله الذي جعل الجهادَ مِحَكَّ الرِّجال، وفتنةً لمعادن الناس يطرد خبثها ويبقي صفوتها، والصَّلاة والسَّلام على محمد الأمين، الذي أُرسل كافة للناس بشيرًا ونذيرًا، ببراءةَ والتحريم.

أما بعد:

قال تعالى: ﴿**لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَاعَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ**﴾ [التوبة: 128].

وقال سبحانه: ﴿**يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ**﴾ [التوبة: 73] [التحريم: 9].

فهذا وصفُ رسولنا ﷺ، الرحمة والرأفة بالمؤمنين، والغِلظة والشدة على الكافرين، ولا يماري في هذا إلا كل أحمق أثيم، يقرأ كلام الله ثم يعرض عنه متعمدًا كأن لم يسمعه.

حينما خالط قلبي شك وحيرة، هل المجاهدون (الإرهابيون) (المتطرفون) (المتشددون) –سمُّوهم كما تشاؤون– هم على حقٍّ؛ أم (العلماء) الذين يحذروننا من المجاهدين على الفضائيات وفي المقالات؟!

طردت من رأسي الكثير من القيل والقال والمهاترات الإعلامية والجدال والطعن المتبادل، ووقفت نفسي موقف الخارج عن الطرفين والناظر إليهما وإلى دعواهما نظر القاضي الحاكم، والمحايد الباحث عن الحق والأدلة السليمة والحجج القويمة.

فرجَعت إلى كتاب ربي وإلى سنة رسوله ﷺ، وأتيت برسول الإسلام وصحابته مثالًا وقدوةً، فعدت إليهم لأرى من المحق ومن المخطئ من رجال اليوم، فالأمر جلل ولا بد من الرجوع إلى الله ورسوله كما أُمِرنا في القرآن:

﴿**فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا**﴾ [النساء: 59].

﴿**وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا**﴾ [النساء: 83].

كما أن الطرفين يدَّعيان استنادهما إلى الكتاب والسنة في ادعاءاتهما، وبالرجوع إلى تلك المصادر والتمعُّن بها والبحث فيها يعرف المرء القول الفصل.

فوالله الذي أنزل الكتب وأرسل الرسل، ما وجدت من رسولنا ﷺ وصحابته من بعده إلا رحمةً بالمؤمنين وعطفًا ولينًا بهم، وما وجدت منهم في مقابله إلا قتالًا وشدة على الكافرين والمشركين وغلظة على المرتدين وبطشًا بالخائنين من يهود ومعتدين وإرهابًا ووعيدًا للنصارى المعاندين.

ما قرأت عنهم إلا فتحًا للبلاد وهديًا للعباد، وما وجدتهم من القاعدين أو الكسالى أو الخائفين، ما وجدتهم يرضَون ببيوت ملكوها أو قوافل تجارية سيروها؛ بل كانوا يسخِّرون هذا وكل ما يملكون للجهاد، ينفقونها في سبيل الله، فلا يُبْقي الواحدُ منهم لنفسه حتى ما يأكل هو وأهله.

ثم ما وجدتهم يقبلون من الناس -كل الناس- إلا الإسلام والنزول عند حكم الله، أو الجزية والذل والصَّغار أو القتال، بعكس ما يقبل به ويرضاه شيوخ وعلماء الفضائيات والمجمعات والندوات والمؤامرات والهيئات المسماة بالإسلامية.

وما وجدت أحدًا يتخلف منهم عن الجهاد والغزو، لا عالـمًا فقيهًا ولا عامِّيًّا جاهلًا، لا مزارعًا ولا تاجرًا ولا عاملًا ولا طبيبًا، لا أميرًا واليًا ولا راعيًا نائيًا، ولا طالب علم ولا معلمًا مشهورًا.

تُرى! ألم يكن الرسول ﷺ يمكنه بعد فتح مكة وبيعة أغلب قبائل الجزيرة له أن يجلس وينهي الحروب ويعقد اتفاقيات مع (جيرانه) من الفرس والروم واليهود؟ يتساءل عَلمانيٌّ وطنيٌّ!

ثم يقومَ بإيفاد البعثات (الدبلوماسية) وتسيير القوافل التجارية مع الدول المختلفة، ونظم الكتب والرسائل للرؤساء والعظماء؟

وإرسال الجماعات التبشيرية، وبعث الأفراد الدعوية، لينشروا دين الإسلام باللين والحسنى؟

ترى لماذا لم يفعل هذا ولا خلفاؤه؟! لماذا سيَّر هو ﷺ وسَيَّروا هم من بعده السَّرايا والجيوش هنا وهناك إلى كل حدب وصوب، مصر والعراق والشام وغيرها ينشرون الدين بحسن اللسان وإلا فبحدِّ السنان.

وهذا كما ذكرت رغم الفتح العظيم لمكة، وبيعة أغلب قبائل الجزيرة وخضوعهم ودخولهم في دين الله أفواجًا.

لماذا لم يكتف رسول الله ﷺ بذلك؟!

ولماذا لم أقرأ أبدًا ولا في أي كتاب لواحد من العلماء أو المؤرخين –حتى في عصر الخلفاء المقصِّرين وفي زمن الضعف والركود– عن مجرد طرحٍ لفكرةِ القعود من دون جهاد أو فتح للأمصار والبلاد؟

أتراهم كانوا جميعًا وعلى طول 14 قرنًا من الغلاة الخوارج المتطرفين المعتدين؟ أيعقل أن الرسول ﷺ (وحاشاه) كان معتديًا على حقِّ المشارقة والمغاربة في عيشهم الحر وعبادتهم أربابهم الخاصة؟ أيعقل أن صحابته وخلفاءه من بعده كانوا جميعًا معتدين ومخطئين في نشرهم الدين وغزوهم الأرضين؟

أم أن علماء اليوم هم دعاة على أبواب جهنم، نكسوا على رؤوسهم وارتدوا على أدبارهم؟ دعاة يلبسون الجلباب القصير ويطلقون اللحى الطويلة، ويدَّعون أنهم على نهج السلف، وهم يتكلمون بلسان الفرنجة والأمريكان واليهود؟

احكم بنفسك أيها المسلم **من هو المصيب، رسول الله وصحابته**؛ أم **علماء اليوم وسلاطينُهم المرتدون**؟!

هكذا تعلم يا أخي –وعلمت أنا– ويعلم كل من يبحث عن الحق، من المحق ومن المخطئ.

وإن كنتَ لا تزال في شكٍّ أيها المسلم فما عليك إلا مراجعة كتاب ربِّك -لا ميثاق حقوق الإنسان- وقراءتُه مرة واحدة بإنصاف وتجرُّد لله، إذ بيَّن فيه ربُّك -جلَّ وعلا- كلَّ ما يخصك في هذا الشأن، وذكره لك بلا نقص أو إهمال:

﴿**لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ**﴾ [الأنبياء: 10]؟

وهو ما ستُسأل عنه يوم القيامة، ولن تسأل عن غيره من كتب وقوانين وقرارات صنعها البشر.

ولْتراجع سنة نبيك ﷺ وسِيَرَه ومغازيه؛ ثم سِيَرَ الصحابة والتابعين، فبالله عليك هل ستجدهم قعودًا راضين بالدنيا بين أهلهم وأموالهم ومتاعهم، أم ستجدهم وبإجماع العلماء والمؤرخين ممن سبق ولحق مجاهدين صابرين، طلَّقوا الدنيا وأقبلوا على الآخرة ونعيمها؟

ما لا يفهمه القاعدون والعَلمانيون من وطنيين وقوميين، ودعاة السلام والأمان الموهومين، والعيش المشترك الهانئ الرغيد، و(حرية التعبير والكفر والتصرف)، وحقوق الإنسان هو قوله ﷺ: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الإِسْلاَمِ، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ**»[1].

بل إن هذا الحديث إن قُلْتَ لبعض الناس إنه صحيح ماضٍ قائمٌ واجبٌ العمل به إلى يوم القيامة؛ لخرج الكثيرون من المتذبذبين عن دينهم علنًا كافرين بذلك الدين الذي يدعو إلى قتال الناس حتى الإسلام، أو الاستسلام.

هم لا يفهمون ولا يفقهون غير الركوع والخنوع والرضا بالدنيا، مَرَدوا على هذا حتى استوت ظهورهم لكثرة الركوب عليها، وشُقَّت أحناكهم لكثرة ما سِيقوا منها، فما عادوا يدركون حالًا غير حال المركوب عليهم، المساقين من غيرهم، الراضين بفُتات الدنيا الدنيَّة.

(1) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (1/ 14) برقم 25، ومسلم (1/ 52) برقم 21.

فيتعجبون من قوله ﷺ لعمِّه حين طالبه أن ينتهي عن نشر دينه هذا، أو يقدم بعض التنازلات؛ فعن موسى بن طلحة قال: حدثني عقيل بن أبي طالب قال: "جَاءَتْ قُرَيْشٌ إِلَى أَبِي طَالِبٍ فَقَالُوا: إِنَّ ابْنَ أَخِيكَ يُؤْذِينَا فِي نَادِينَا وَفِي مَجْلِسِنَا فَانْهَهُ عَنْ إِيذَائِنَا، فَقَالَ لِي: يَا عُقَيْلُ ائْتِ مُحَمَّدًا، فَانْطَلَقْتُ إِلَيْهِ فَأَخْرَجْتُهُ مِنْ كِبْسٍ، قَالَ طَلْحَةُ: بَيْتٌ صَغِيرٌ، فَجَاءَ فِي الظُّهْرِ مِنْ شِدَّةِ الْحَرِّ فَجَعَلَ يَطْلُبُ الْفَيْءَ يَمْشِي فِيهِ مِنْ شِدَّةِ حَرِّ الرَّمْضَاءِ، فَأَتَيْنَاهُمْ، فَقَالَ أَبُو طَالِبٍ: إِنَّ بني عَمِّكَ زَعَمُوا أَنَّكَ تُؤْذِيهِمْ فِي نَادِيهِمْ وَفِي مَجْلِسِهِمْ، فَانْتَهِ عَنْ ذَلِكَ فَحَلَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِبَصَرِهِ إِلَى السَّمَاءِ، فَقَالَ: «**مَا تَرَوْنَ هَذَا الشَّمْسَ؟**» قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «**مَا أَنَا بِأَقْدَرَ أَنْ أَدَعَ ذَلِكَ مِنْكُمْ أَنْ تُشْعِلُوا مِنْهَا شُعْلَةً**» قَالَ أَبُو طَالِبٍ: مَا كَذَبَنَا ابْنُ أَخِي قَطُّ فَارْجِعُوا"(2).

كيف يفهم هذا من شرب حبَّ الدنيا حتى ثمل، وراح يهذي بالأموال والنساء والأولاد والمتاع؟

بل لا أشكُّ أن أمثال هؤلاء ينظرون إلى النبي ﷺ بعين الاستهزاء إن ذكر بينهم زهده في الدنيا.

وقوله في حديث عمر، فيما يرويه ابن عباس رضي الله عنه قَالَ: "دَخَلَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ عَلَى حَصِيرٍ قَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِهِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَوِ اتَّخَذْتَ فِرَاشًا أَوْثَرَ مِنْ هَذَا؟"، فَقَالَ: «**يَا عُمَرُ، مَا لِي وَلِلدُّنْيَا، وَمَا لِلدُّنْيَا وَلِي، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا مَثَلِي وَمَثَلُ الدُّنْيَا إِلَّا كَرَاكِبٍ سَارَ فِي يَوْمٍ صَائِفٍ، فَاسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا**»(3).

كيف سيفهمون كلام النبي ﷺ ومثاله ذلك في الراكب وتركه للشجرة وظلها وهم يتهافتون على الدنيا كالكلاب المسعورة؟

---

(2) أخرجه الحاكم في المستدرك (3/ 668) برقم 6467، والطبراني في المعجم الكبير (12/ 136) برقم 13946، وأبو يعلى (12/ 176) برقم 6804.

(3) أخرجه أحمد (1/ 301) برقم 2744، وابن حبان (14/ 265) برقم 6352، وللحديث شاهد من حديث ابن مسعود في مسند أحمد أيضًا والمستدرك وعند الترمذي وابن ماجه.

كيف يفهمون كلامه وهم يبنون القصور ويشيدون المباني العالية والقرى الكاملة ويتبارون في ذلك ويتشاجرون؟

كيف يفهمون مثاله ﷺ وهم يبحثون في القمر والمريخ والأفلاك الأخرى عن الحياة الأبدية؟

ومما يحزن القلب أن يأتينا من أبناء المسلمين من يعظِّم ما وصلوا إليه من (تطور) وصناعة وسيارات وطيارات وآلات ووصولٍ للقمر وطيران في الفضاء، فيواليهم لأجل ما وصلوا إليه، ويحبهم ويعظِّمهم لأجل أن ينعم بما أنجزوه، ويتجاهل أن تقدم وتطوُّر العلم والحضارات مرهونان بتكاثر الناس وتوزُّعهم وبيئاتهم، وأن هذا العلم والتطوُّر ليسا بفضل ذكاء الصليبيين والملحدين والعلمانيين، إنما هو بأمر الله ومن بعد إذنه، **هو من جعله فيهم لا هم من أُوتوه على علمٍ عندهم**، وأن الله إنما جعل الأيام دولًا حتى في ذلك الأمر، فالأمة التي كانت في يومٍ ما جاهلةً ضعيفةً تصبح بعده عالمةً قويةً والعكس، فالحضارات والعلوم قد تداولها البشر على مر العصور ولم تكن محصورة بأمة معينة لا في الشرق ولا في الغرب لا في العرب ولا في العجم.

ويتجاهل أيضًا أن استخدام هذا العلوم الجديدة وآلاتها وأدواتها واتخاذَها أسبابًا للقوة والمنعة وصد مستخدميها من العدوان علينا؛ لا يعني بحال أن نعجب بمخترعيها وصانعيها ونعظمهم ونحبهم، فالحقيقة التي لا ينبغي تجاهلها أبدًا أنَّ الخالق لهذه الأدوات والآلات وواضع العلم الخاص بها وميسِّر قوانينه ومهيِّئ أسبابه هو الله ﷻ لا هُم، ورازق موادِّه الأولية والقوَّة البشرية والطَّاقة الطبيعيَّة له هو الله لا هُم، فإن كان الله قد اختار أن يضع العلوم الحالية عند الصليبيين والكفار؛ فما ذلك إلا فتنة واختبارًا لهم ولنا، وليس نصرًا لهم ومكافأة كما يظن بعض الجاهلين، وليس دليلًا على ذكائهم وفهمهم وقوة إدراكهم.

وإن كنت أحزن على من يعجب بهم ويواليهم لأجل ذلك، لكني لا أتحرج أن أصفه بأبشع الأوصاف التي تناسبه، وأقول لهذا: يا أيها الجاهل المغبون، ما الذي جناه البشر من علوم هؤلاء الكفار وحضارتهم وتطورهم وركوبهم الفضاء؟

هل وجدوا الخلود المزعوم الذي يبحثون عنه للبشرية وتجنَّبوا الموت والهلاك؟ بلا شك: لا.

حسنًا! سأنزل معك قليلًا حتى لا أحرجك، هل زاد عددُ سنيِّ حياتهم؟ أيضًا: لا، ولن يزيد.

سأنزل معك إلى أسفل سافلين كما تهوى ثم أسألك، هل أصبحت الدنيا أسهل وأكثر راحة وأمنًا؟

بالتأكيد: لا.

فإن كنت ستعترف مُكرهًا في النهاية أن تلك العلوم والتطور والحضارة لم تُفِدْهم، ولن تفيدهم في الدنيا، ولن تمنع عنهم الموت، ولم تُطل أعمارهم، ولم تجعلهم أكثر راحةً وأمنًا؛ فقل لي الآن: هل ستفيدهم بعد الموت أو في الآخرة عند خالقهم يوم الحساب، يوم يكون مصيرهم جنة أو نار؟

ألا تلاحظ أيها المغرور بهم أنك واقعٌ في حفرة خبالك، وتائهٌ في نفق مجونك وإسرافك وسفاهة عقلك المعجب بهم.

ما لا يفهمونه ولا يقبلونه ولا يطبقونه أبدًا لتعلُّقهم بالدنيا وجهلهم بحقيقتها قوله ﷺ: «**لَغَدْوَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ رَوْحَةٌ، خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا**»(4).

بل تَراهم ينكرون على من تفدي شريعتَه روحي ومالي إن سمعوا قوله: «**بُعِثْتُ بَيْنَ يَدَيْ السَّاعَةِ بِالسَّيْفِ حَتَّى يُعْبَدَ اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي وَجُعِلَ الذُّلُّ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي وَمَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ**»(5).

(ما هذا الإجرام والتطرف والتعدِّي على الإنسانية وحقوق الخلق والكبر والاستعلاء على البشر وهم سواسية) **يتعجَّب ملحدٌ متحضّر!**

نعم، بل كثيرًا ما تسمع ذلك من مدَّعٍ للإسلام كالإخوان وأشباههم من دعاة السلميَّة والسلام مع الكفار وزنادقة وحمير العلم دعاة جهنم.

---

(4) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (4/ 16) برقم 2792، ومسلم (3/ 1499) برقم 1880.

(5) أخرجه أحمد (2/ 92) برقم 5667، من حديث ابن عمر ﷺ وعلق البخاري بعضه في صحيحه.

وقوله في ما نقله أَبِو بَكْرِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ قَيْسٍ عَنْ أَبِيهِ (أبو موسى الأشعري) قَالَ: "سَمِعْتُ أَبِي وَهُوَ بِحَضْرَةِ الْعَدُوِّ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِنَّ أَبْوَابَ الْجَنَّةِ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ**»، فَقَامَ رَجُلٌ رَثُّ الْهَيْئَةِ، فَقَالَ: يَا أَبَا مُوسَى، آنْتَ سَمِعْتَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ هَذَا؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَرَجَعَ إِلَى أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: أَقْرَأُ عَلَيْكُمُ السَّلَامَ، ثُمَّ كَسَرَ جَفْنَ سَيْفِهِ فَأَلْقَاهُ، ثُمَّ مَشَى بِسَيْفِهِ إِلَى الْعَدُوِّ فَضَرَبَ بِهِ حَتَّى قُتِلَ"(6).

ويضيق المقام عن ذكر الأحاديث الواردة في ذكر الجهاد، وفضل الغزو وعظمته في مقابل تحقير الدنيا والزهد فيها وذم القعود وأهله، فإن أردتُ أن أورد لكم النزر اليسير من سير ومغازي وبطولات الرسول ﷺ والخلفاء والتابعين لما اتسعت لهذا المقال الصفحات، ومن لم يفهم ويعلم بعد هذا الكلام القليل حقيقةَ الدنيا والآخرة؛ فهو بلا شك قد أصابته لوثة الحضارة المادية، وظن أنه من الخالدين في الدنيا، فلينتظر أمر الخالق.

ألا زلتَ متردِّدًا بين (علماء الفضائيات) دعاة جهنم، وبين المجاهدين دعاة الجنة، وتتساءل من المحقُّ من الطرفين؟

فسبحان من جعل القتال في سبيله فيصلًا، يبتلي به الذين قالوا آمنا، فيبيِّن الصادقين منهم، ويبيِّن المنافقين.

أتحسبون أنكم بقولكم "آمنَّا" ستُتركون دون فتنة الجهاد والقتال؟

لا والله... لا تُتركون.

قال الرب -جل وعلا-: ﴿**الم (1) أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (2) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (3) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (4) مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ**

(6) أخرجه مسلم (3/ 1511) برقم 1902.

السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (5) وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: 1 - 6].

اقرؤوا معي يا إخوتي، وتأملوا هذه الآيات جيِّدًا وتدبَّروها: لا تعبُروا عليها أو تمرُّوا مرور الحافظ لها، فإنَّ قراءتها بتمعُّن وتدبُّر لكلماتها ومعانيها تشعِرُك أنك تقرؤها لأول مرة.

فاقرأ هذه الفارقة :قال ربِّي ﷻ مخاطبًا عباده **المخلصين:**

﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 74].

هذا الكلام في الآية -كما رأيتم- موجَّهٌ فقط لطلَّاب الآخرة؛ الذين يبيعون دنياهم وأرواحهم ليشتروا بها آخرتهم ونعيمها، أما طلَّاب الدنيا من **المنافقين:**

﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: 87].

﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: 93].

ثم اقرؤوا هاتين الآيتين بهدوء وتمعُّن وبعدها صارحوا أنفسكم لمرة واحدة فقط:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: 77].

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ﴾ [محمد: 20].

صارحوا أنفسكم؛ هل تخشون من القتال والحروب كما في الآية الأولى، وتسخطون على الله إن فُرضت عليكم؟

ثم هل يُغشى عليكم من ذكر الموت كما في الآية الثانية، بل من مجرد القتال؟ تدفعون الفكرة عنكم بأيديكم بحركات بهلوانية تشبه حركات الأطفال؟

إن كنتم كذلك فاحذروا، فإن هذه الآيات نزلت في المنافقين، ولتعلموا أن المنافقين في الدرك الأسفل من النار؛ إلا من تاب.

يا ربُّ لك الحمد، كم كشفت لنا بالجهاد أصحاب عمائم ومدَّعين للإسلام.

كم كشفت لنا بالإنزال العملي لأحكام الإسلام أصحاب لحًى مزورة وعلوم مكدسة، إذ جمعوها على ظهورهم كالحمير تحمل أسفارًا، فقرؤوها وبرعوا فيها ودرَّسوها مكتوبة مسموعة مقروءة، ثم عارضوها وصدُّوا عنها وحاربوها مطبقةً منزَّلةً.

ذلك لأنهم كما قال ﷻ: ﴿**فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (81) فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾ [التوبة: 81، 82].

﴿**وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ [التوبة: 90].

هل أنتم ممن كذب الله ورسوله ﷺ، ولم تصدِّقوا بما جاء به؟

إذًا لماذا تقعدون عن الجهاد؟

ألا تخشون هذا العذاب الأليم؟ ما عذركم بالله عليكم؟

هل هذا عذركم:

﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا﴾ [الفتح: 11].

إن كان هذا عذركم فقد ردَّ الله جَلَّ جَلَالُهُ عليكم:

﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [الفتح: 11].

سبحان الله! ما ترك الله لكم من عذر! أليس كذلك؟

فأين تفرُّون؟

أم أنكم تسمعون لأولئك العلماء (العملاء)؛ الذين يتربَّعون في أحضان السلاطين، لا يجرؤ أحدهم على ترك زوجه وبيته، يخافون على ما في أيديهم من الزوال؟ ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ [الأحزاب: 19].

الخوف: يعني القتال. فإذا جاء القتال والجهاد رأيتهم هكذا، كالمغشي عليه، يا له من مشهد قبيح يظهر خبيئتهم، قبَّحهم الله وفضحهم كما نافقوا وكفروا بآياته!

أم ستكونون متربصين؟ تنتظرون الفوز والنصر، فتقولون نحن مسلمون منكم ومعكم، وإن هُزم المجاهدون بأمر الله قلتم: (الحمد لله إذ لم نكن مع هؤلاء، ها هُم قد هزموا، ولو كان فيهم خيرٌ لانتصروا).

إذًا، فقد قال الله فيكم:

﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا (72) وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَالَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 72، 73].

إخوتي: **﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾** [التوبة: 13].

ألا تقاتلون قومًا كفروا بالله ورسوله، ويكرهونكم ويكرهون دينكم، ويضمرون لكم العداوة والبغضاء، وهم بدؤوكم واعتدوا على دياركم وإخوانكم وأعراضكم؟

سبحان الله ما هذا الذلُّ والوهن الذي أصابنا!

وأخيرًا، فإن من تلبيس بعض العلمانيين الكفار أن يقول لك إن هذه الآيات والأحاديث في القتال وفرض الجهاد إنما هي لأصحاب الرسول ﷺ، وفي زمنه وحال وجوده بين المؤمنين فقط حتى لا يتخلفوا عنه أو يرغبوا بأنفسهم عن نفسه، وأننا اليوم في زمنٍ مختلف عن زمنهم لا يمكن فيه الجهاد والقتال لنشر الدين كما كان سابقًا؛ فاعلم أنه من تلبيسهم وكذبهم أخزاهم الله، ولو كنت فطنًا مهتمًّا لدينك لعلمت هذا من تلقاء نفسك وفطرتك، ولتفكَّرت في قوله تعالى:

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: 144].

تفكَّر جيدًا وتدبّر قوله –جل وعلا–:

﴿أَفَإِيْن مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾

لو كان الجهاد فرضًا في زمنه ومعه ﷺ حصرًا لما عاتب الله الصحابة –رضوان الله عليهم– بتلك الآية لِما أصابهم من فتورٍ في الهمة ووهنٍ في النفس يوم (أُحُد) حين ظنوا أنه قُتِل ﷺ، فالإشارة واضحة جلية أن

عليهم القتال والاستمرار بالدعوة والجهاد؛ فلو كانت إقامة الدين -والقتال عليها- فرض في زمنه ﷺ حصرًا وحال وجوده؛ لما عنَّف الله على الصحابة أن يتوقَّفوا عن القتال في حال قَبْضِ النبي الذي بين ظهرانيهم، ولما حذَّرهم من الارتداد والانقلاب على الأعقاب، فدين الله قائم والساعة لما تحن بعدُ، والدعوة مستمرة لا تتوقف بموت الرسل، والقتال عليها مفروض إلى أن يأذن الله(7).

وفي الآية السابقة معانٍ كثيرة ونكاتٌ وفيرة لا يتسع المقال لذكرها، فعليك أيها المسلم أن تتدبرها بقلبك وتتأملها مليًّا.

سبحان الله! كيف يقرأ المسلم هذا ويطيب له القعود!

﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: 24].

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (38) إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التوبة: 38، 39].

إلَّا تنفروا يعذبكم عذابًا أليمًا، إلَّا تنفروا يعذبكم عذابًا أليمًا، إلَّا تنفروا يعذبكم عذابًا أليمًا!

وكَتَبَه:

أبو بكرٍ خالد بن محمد الشَّامي

الثلاثاء 23 رمضان 1437 هـ - 28 يونيو 2016 م

(7) ويكفيك في هذا الحديثُ الصحيح (المتواتر) عن الطائفة المنصورة المجاهدة في سبيل الله إلى آخر الزمان، ورواياته كثيرة لا مجال لذكرها فراجعها في كتب السنة.